

لكل شيء سبباً ... إبراهيم يحيى أبو ليلي



بالأمس القريب استيقظ ابني عبدالرحمن الذي لم يتجاوز عمره السنة و النصف من نومه ، و كان هناك شعاع ضئيل من أشعة الشمس يتسلل من خلال كوة بجانب جهاز التكييف ، و لاحظت أن هذا الطفل نظر نظرة سريعة إلى ذلك الشعاع و بنظرة أسرع إلى سقف الغرفة باحثاً عن مصدر هذا الشعاع .. عقله الصغير لم يجعله يدرك و يتبين الأمر بعد ، فلم يلاحظ الكوة التي دخل منها هذا الشعاع ثم استأنف لهوه و لعبه ..

و في الحقيقة لقد استوقفتني هذا المشهد و أخذت أدير الفكر في هذا الأمر ..

إن هذا الطفل أدرك بالفطرة أنه لا بد أن يكون هناك مكان قد قدم منه هذا الشعاع .. و كأنه يقول بعقله الغض "من المستحيل أن يكون هذا الشعاع مصدره هذه الغرفة أو أنه جاء من العدم أو صنعته الصدفة ، لا بد أن يكون هناك سبب و مكان هو المصدر لهذا الشعاع .. فالفطرة السليمة تأبى إلا أن تجعل لكل شيء سبب ..

ثم تسائلت لماذا يوجد أناس يفنون أعمارهم كلها في البحث و العلم ، ثم يهديهم شيطانهم أن هذا الكون كله بسمواته و أرضه ، و هذا الفضاء الواسع و النجوم و الكواكب ، و أبعادها التي تحسب بالسنوات الضوئية ، و الثقوب السوداء الهائلة .. إنما وجدت كلها بمحض الصدفة أو جاءت من العدم هكذا بدون موجد أو صنعته الطبيعة الصماء ... مع أن الفطرة تقول خلاف ذلك و كما قال الأعرابي قديماً (البعرة تدل على البعير و الأثر يدل على المسير سموات ذات أبراج و أرض ذات فجاج و بحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على العلي القدير) ..

كيف يدرك عقل طفل غرير هذه الحقيقة و تغيب عن بعض فطاحلة العلم .. و ذلك يعود إلى أن الانسان يغتر بعلمه و لا يرد هبة العلم إلى المنعم عز وجل ، و تبنى مبدأ قارون (إنما أوتيته على علم عندي) ، و اتباع الهوى و الانغماس في الشهوات و ارتكاب المعاصي و الفواحش و الخوف من المسائلة .. لأن النفس الانسانية و الضمير الانساني يُقلق كل آثم بوخز الضمير و من ثم يهرب من محاسبة النفس إلى إنكار الموجد ، و قد قال الله سبحانه و تعالى في شأن هذا (بل يريد الانسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة) استعداداً و تهينة النفس للإفلات من العقاب بإنكار الحق حتى و هو ظاهر للعيان ، كمن يريد تغطية الشمس بغربال ، و يخالف الفطرة و يذل عقله ..

الفطرة تقول بما لا مجال للشك أو الريب أن الكون كله ملك واحد أحد فرد صمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد .. لا تسقط ورقة إلا بذنه و بقدرته و تقديره ..

الفطرة هي دين كل المخلوقات .. عليها جبلت و بها استدل على الخالق جل و علا .. و قول بعض الملحدين أن الانسان يقوم وحده هو هراء مهما حاولوا وضع أدلة على باطلهم فالباطل يظل باطلاً و الحق يظل حقاً ..

فليقف كل إنسان وقفة صدق مع نفسه و يتأملها أولاً ، و يتأمل هذا الملكوت ثم يجرد النفس و الرأي من الهوى و يحاول جهده أن يزِيل الغشاوة التي يسد لها الشيطان ، و الران الذي يغطي القلب و يحجبه عن رؤية الحقيقة هنا ، فتتجلى عناية الله و عونه و تقف في صف من أراد الحق ضد كل شياطين الانس و الجن ، قنشع النفس بنور الإيمان و اليقين و تطمئن و تسلم القيادة إلى بارئها و موجدتها ...

و بدون ذلك لا يمكن أن يكون هناك أمان للنفس الانسانية ... و صدق الله العظيم إذ يقول في شأن هؤلاء الجاحدين المنكرين (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين (20) وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ (21)) ..

قال الشاعر الباكستاني محمد إقبال :

إذا الايمان ضاع فلا أمان ...

ولا دنيا لمن لم يحيي ديناً ..

و من رضي الحياة بغير دين ..

فقد جعل الفناء لها قريناً ..

اللهم أرنا الحق حقاً و أرزقنا اتباعه و أرنا الباطل باطلاً و أرزقنا اجتنابه ... و رزقنا الله و إياكم إيماناً نجد حلاوته في قلوبنا فاقبضنا إليك غير مفتونين و لا فاتنين .. إلھنا .. و خالقنا .. و صلي الله وسلم على نبينا محمد ، و على آله و صحبه و سلم .

إبراهيم يحيى أبو ليلي